بعد خراب البصرة

استفقت في هذا الصباح على صياح الديوك في بيوت الجيران، السماء صافية ليس فيها لطخ من سحاب، والبرد غير شديد وإن كان لا غنى في القرية عن المدفأة، لقد شعلت النار وأخذت أمتع البدن من الدفء والأذن من صياح الديوك، ثم تذكرت أن هذا اليوم، يوم الثلاثاء، إنما هو ميعاد إنشاء الوظيفة التي فرضها على عميد «الأيام» مد الله حياته، ولا يستغربن القارئ الكريم هذه اللفظة: الوظيفة، فقد أصبحت تلميذاً في مدرسة العازاريين من خمسين سنة، وقد كانوا في أيام الدراسة يعاقبون التلميذ الذي لا يكتب وظيفته أنواع العقاب، والعقاب كان في لغة الأساتذة اسمه: القصاص: فخفت إذا لم أكتب وظيفتي في «الأيام» أن أعاقب، إلا أن المعاقبين إنما هم طائفة من إخواني، حفظهم الله، هذا يقول لي: إنا لا نكتفي بيوميات واحدة منك في الأسبوع، فلا بد من مقالين أو ثلاث مقالات، وهذا يقول لي: إنا ننتظر «يومياتك» ولولا معرفتي بنفسي لدخل الغرور عليّ من هذه الأقوال اللطيفة، ولكني أحمد الله تعالى على أني أعرف حدي فأقف عنده، فلا يغرني مدح أو إغراق فيه، إني لا أتقدم في صناعة الكتابة إلا شعرت ببعدي عن

مراتب البلغاء الذين استضأت بضيائهم، فلا يمر عليّ يوم دون أن أفتح بعض كتبهم فالتقط لفظة طريفة أو تعبيراً مبتكراً، فأنا لا أزال على الدرب، لم أصل بعد إلى المرتبة التي أحلم بها، وفي كل حال لا يمنعني هذا العجز عن أن أشكر لأصحاب الظن الحسن والإعتقاد الجميل.

كدت أخرج عن موضوعي، أو على وجه أصح كدت أنسى ما توخيت أن أقوله في بدء «اليوميات» فها آنذا أرجع إلى الموضوع، لما أمسكت بالقلم لأكتب شعرت بفتور في الهمة ولم ينشأ هذا الفتور عن قلة الموضوعات، فإنها والحمد لله كثيرة وما دام عصرنا عصر الطواغيت في بعض بلاد العرب فإننا نجد في سيرة هؤلاء الطواغيت وفي سياستهم وفي هؤلاء الطواغيت وفي سياستهم وفي ثورتهم، إنا نجد في خراب البلاد على أيديهم ما يوحي إلينا كل يوم موضوعاً، فالفتور الذي غلب علي لم يكن السبب فيه إلا النفس ذاتها إن الإنسان تمر عليه ساعات لا ينشط فيها لعمله، سواء في ذلك رجال الأدب والفن ورجال الصناعات وأكبر خطأ يقع فيه رجل الأدب والفن في حالة مثل هذه الحالة، حالة فتور النشاط أن يعمد للكتابة إذا كان كاتباً أو للفن إذا كان من أهل الفن، فإن الذي يأتي مع الطبع خير من الذي يأتي مع الكلفة، ولذلك يقول شيوخ النقد في شاعر من الشعراء إنه من المطبوعين، أي من الذين ينقاد الشعر إليهم دون جهد أو كلفة.

لقد حاولت بعد دقائق من فتور الهمة أن استعيد نشاط الذهن، ففتحت مجلة قديمة أرجع إليها من حين إلى آخر فوقع نظري على خاطر من خواطر رجل من رجال الأكاديمية في باريز، عنوان هذا الخاطر: مهمة الكاتب!.. لما قرأت المقال نشط الذهن فتحرك بي الميل إلى الكتابة، لأن الفكر يجلب الفكر.

لا أريد أن أترجم المقال لأني أكره الترجمة وإنما أريد أن اقتبس منه فكرة أو فكرتين، لعل في هذا الاقتباس عبرة للكتّاب حتى يعرفوا مهمتهم في المجتمع إنهم لا يقدرون منزلتهم حق قدرها إنهم لا يزالون يجهلون أنهم يستطيعون أن يصلحوا مجتمعات أو يقلبوا وزارات أو يثلوا عروشاً، فمتى يأتي اليوم الذي يشعر فيه كتابنا بمهمتهم الجلية!.

ما هي هذه المهمة، هل مهمة الكاتب أن يكون صدى مجتمعة، أم مهمته أن يكون صدى نفسه، ولا شيء إلا صدى نفسه.

إذا اقتصر الكاتب على الإفصاح عن مجتمعه كان رساماً أميناً أو مؤرخاً صادقاً، فقد يرضي في ذلك مجتمعه ولكنه لا يضيف شيئاً جديداً إلى معلومات العالم أو محاسن هذا العالم، فإنه ينقل هذه المعلومات كما هي، أو يصور هذه المحاسن كما هي.

ولكن الكاتب من الطراز الأول، الكاتب الذي رزقه الله شخصية متينة فرض على العالم آراءه وتصوراته، فهو يوحي إلى العالم أن يرى الأشياء كما يراها هو نفسه لا كما يرها العالم،

فالكاتب يجب عليه أن يحترم شخصيته قبل كل شيء، إنه رجل ولا كالرجال، فلا ينبغي له أن يكون على مستوى الناس لا ينبغي له أن ينتظر أمر الناس وإنما عليه أن يأمر!..

ما كدت أفرغ من إقتباس هاتين الفكرتين حتى أحطت بمنزلة الكتّاب في المجتمع وأستطعت أن أدرك ما يقدرون على علمه، إنهم قد ينقلون مجتمعهم من حال إلى حال، ولو ذهبت إلى الإتيان على ذكر طائفة من أبطال الروايات التي وضعها كبار الكتّاب في العالم لرأينا بأعيننا ما أبقاه هؤلاء الأبطال في أذهان القراء، فقد لقنوهم الفضيلة كما لقنوهم الرذيلة وقد عودوهم حب الوطن كما عودوهم حب اللحم والدم والعظم، وقد كشفوا لهم عن مقابحهم كما كشفوا لهم عن محاسنهم، فمن رجال الأدب هن من قالوا إن «غوتي» ما كاد يقذف بروايته: «ورتر» حتى توالت الإنتحارات، وإن «روسو» ما كاد يدفع كتابه: «أميل» حتى اشتد الميل إلى الإرهاب والخنق.. روائي يجعل من قراء روايته مجانين، وروائي يخلق منهم خلابات، وروائي يكثر على يده القتلة.. ماذا عمل «بلزاك» لقد تصور في رواياته عالماً من جهنم فاستفاض في قرائها الحسد والطمع والفظاعة والشتائم والتناحر على الذهب والمناصب.

ليس معنى هذا أن الروايات هي التي تفضي بالقراء إلى هذه الفظائع فإن «اتيلا» و «جنكيز خان» كانا رجال تخريب على أنهما لم يطالعا شعر «هوميروس» وتنازع البقاء في هذه الدنيا أدى إلى

تقاتل الناس قبل «بلزاك» ولكن معنى تأثير الكتّاب أن الثورات ليست في أراقة الدماء ولكنها في أراقة الحبر على الورق، فقد تفعل الكتابة في المجتمع مالا يفعله السيف في القتل والنار في الإحراق والسجن في الضغط..

الثورات الصادقة الخالدة في العالم إنما هي ثورات الفكر والأدب والفن أما الثورات الكاذبة، ثورات الطغيان فإنها سحابة صيف، ولكن المؤلم أن هذه السحابة إذا انقشعت فإنها لا تنقشع إلا:

بعد خراب البصرة!.

الأيام ١٩٦٢

تقرير لجنة فحص الترشيح

لجائزة الدولة التقديرية للآداب عن السيد/الاستاذ عباس محمود العقاد

عمل الأستاذ عباس محمود العقاد في حياته كلها للأدب وحده، وعاش في سبيل هذا الأدب، فقد انصرف إليه منذ عنفوان شبابه فقضى خمسين عاماً في المطالعة والتأليف حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الإنتاج، وقد كانت نظرته إلى الأدب نظرة جد لا نظرة لهو وتسلية ومما يدل على شدة إيمانه بجد الأدب وبعده عن لهوه وتسليته ووفرة مؤلفاته حتى نيفت هذه المؤلفات في منظوم القول ومنثوره على السبعين.

خاض الأستاذ عباس محمود العقاد في كثير من أبواب الأدب فقد بدأ حياته بالنقد فنقد بعض كبار الشعراء في عصره، ولم يقتصر في نقده على التنبيه على أمور تتعلق باللغة وحدها، فنظر إلى القصيدة من حيث وحدة موضوعها وتسلسل أجزائها وتماسك هذه الأجزاء، كما نظر إليها من حيث عمق أفكارها، ثم وسع آفاق الشعر بحيث لا يقف الشاعر على موضوعات معينة متعارفة وإنما يتعرض في شعره لكل ما يمر به في الحياة، ثم غلب الفكر على موضوعات الشعر بحيث يمكن نقل هذه الموضوعات من لغة إلى لغة دون أن يذهب جوهر معانيها.

ولم يكن الأستاذ عباس محمود العقاد ناقداً نظرياً فحسب وإنما قرن نقده النظري بالعمل فطابق بين نقده وبين شعره، فجاء شعره مطبوعاً بهذا الطابع الذي دعا إليه في نقده، فهو من هذه الناحية نقّاد يبني لانقاد يهدم.

لم يحبس الأستاذ عباس محمود العقاد قلمه على النقد وحده وإنما جال في ميادين كثيرة من الأدب، أعظمها شأناً الدراسات الأدبية وتحليلات الأشخاص، أما الدراسات الأدبية وحسبنا منها فصوله الدقيقة في المتنبي وكتابه ابن الرومي، فقد صور المتنبي في حقيقة صورته وأدرك جوهر خلقه وطبعه وأحس بأعماق شعوره فاستخرج من هذا كله صورة شاعر بلحمه ودمه وبروحه، كما تغلغل في كتابه ابن الرومي إلى خفايا أخلاق الشاعر وحياته وفنه فكشف الغطاء عن أسرار هذه الأخلاق وهذه الحياة وهذا الفن بحيث لا يرى المرء في هذه الدراسات إلا أصالة في الرأي وإنصافاً في الحكم وبراعة في التعليل، فلم يقص الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه ابن الرومي قصة هذا الشاعر ولا سرد أخباره على نحو ما تقص القصص وتسرد الأخبار عادة مجردة من عناصر الحياة وإنما صور ابن الرومي تصويراً وجمع لصورته عناصرها كلها فلم يفته شيء من خطوطها وألوانها ولا من ظواهرها وبواطنها حتى أصبحت صورة ابن الرومي صورة كأنها جسم حي وكأنها روح ناطقة.

وكما برز في الدراسات الأدبية فقد برز في تحليل الأشخاص، من هذا النحو كتابه سعد زغلول فقد اهتدى إلى حقائق سعد زغلول واستخرج أسرار هذه الحقائق من مكانها ووصل إلى كل ناحية من نواحيها.

وما يقال في تحليله لبعض شخصيات عصره يقال في تحليله لأعاظم رجال الإسلام فقد استطاع أن يلقي على أولئك الأعاظم ضياء ساطعاً بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان أخلاقهم بحيث يدرك عظمة الإسلام ورجاله أتم إدراك فيجد أبناء هذا العصر في مطالعة كتب الأستاذ العقاد في هذا الباب قدوة لهم يقتدون بها فيزدادون صلابة في إيمانهم وشدة في قوميتهم.

ولم يفت الأستاذ عباس محمود العقاد بعد دراساته الأدبية وبعد تحليله لأعاظم العرب والإسلام، سر القصة كما تدل على ذلك قصة: ساره، كما عالج نوعاً آخر إلى جنب القصة وهو: المذكرات، وقد أصبحت لهذا النوع الأدبي منزلة رفيعة في الغرب فقد أخذ القراء يميلون إلى أن يواجههم المؤلف رأساً بأسرار حياته.

وإذا تركنا أفق الأدب والتفتنا إلى أفق الفلسفة وجدنا أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد وضع كتابه مجمع الأحياء ليوضح نضال الأهواء والمبادئ وليبلغ كنه الحكمة التي تبدأ منها وتعود إليها أعمال الناس ومساعيهم في هذه الحياة وقد توسع في شرح معاني الخير والشر والحق، ومزج هذه الفلسفة ببعض الخيال حتى لتخف

أفكارها على الأذهان ويسهل ودخولها على النفوس فتصور إجتماعاً للأحياء في غاب افريقية أنطق فيه الحيوانات.

وله في هذا الباب مباحث فلسفية ثانية تتصل ببعض فلاسفة الغرب والشرق.

ولم يعن الأستاذ عباس محمود العقاد بأدب العرب وحدهم ولكنه كتب عن كثير من أدباء الغرب بفضل معرفته الإنجليزية وسعة إطلاعه على أدب الإفرنجة وكتابه «تذكار جيتي» فيه نصيب غير قليل من صفاء الذهن وصفاء الأسلوب فلم يغب عنه تصوير عبقرية «جيتي» وشخصيته وعقيدته وآرائه كما لم يغب عنه تحليل النفس الألمانية وما اجتمع في هذه النفس من عناصر شتى كالتدوين والفلسفة والموسيقى والأناشيد وغير ذلك.

وإذا كان العصر الذي نعيش فه عصر الديمقراطية فقد دافع الأستاذ عباس محمود العقاد عن الديمقراطية دفاع المؤمن بها فهي لم تضعف في نظره وهي تكون أساساً للحكم في المستقبل تبنى عليه قواعد الحكومات، دافع عن الديمقراطية وحذر الكتّاب المسرفين في نقدها من عواقب هذا النقد لأنه إذا بطل الإيمان بها فلن يخففها نظام أصلح منها.

وقد حمله تأييده للديمقراطية على مقاومة الشيوعية فما فاتته فرصة في مقاومتها على أعنف وجه.

هذا جملة من الميادين الواسعة التي جال فيها مقالاته الأستاذ

عباس محمود العقاد فضلاً عن مقالاته المختلفة في كل باب من الأبواب، وإذا استطاع الأستاذ عباس محمود العقاد أن يثبت أفكاره الحديثة وآفاق موضوعاته الرحيبة في أذهان النشء فقد استطاع هذا كله بفضل أصالة بيانه وشدة غيرته على روح اللغة وتمسكه بعبقريتها حتى أصبح إماماً يأتم به أكثر شباب هذا العصر في أدبهم وتفكيرهم وبيانهم.

ولا شك في أن هذه الأمور كلها التي اختص الله بها الأستاذ عباس محمود العقاد تنفع الوطن والإنسانية.

عضو لجنة فحص الترشيحات لجوائز الدولة التقديرية في الآداب

«**شفيق جبري**».

سيدي صاحب المعالي

رئيس مجمع فؤاد الأول في القاهرة

شرّفني كتاب معاليكم الذي تفضلتم فيه بسؤالي عن مقترحات أو عن مباحث أرغب في عرضها على مجمعنا الكريم في ١٩ ديسمبر ١٩٤٩.

لم أدر يا سيدي حتى هذا اليوم بطبيعة المباحث التي يتذاكر بها أساتذة مجمعنا الفضلاء، ولم أطلع على مجلة المجمع حتى أعرف شيئاً عن هذه المباحث، فإذا جئت بكتابي هذا باقتراح فلست أدري موقعه وعلى كل حال فإني استأذن مجمعنا في أن أعرض عليه الأمر الآتي.

لا شك في أن مجمعنا مثل مجمع فؤاد الأول يضم نخبة رجال الأدب والعلم في بلاد العرب لم ينشأ للحاضر وحده وإنما أنشئ للمستقبل أيضاً، فإذا تصدّى هذا المجمع لعمل صعب لا يتم إلا في سنين طويلة فلا يجوز أن يقطع أمله من هذا العمل فالأكاديمية الفرنسية التي أنشئت على عهد لويس الرابع عشر لا تزال تعنى ببعضها على الرغم من طول العهد بينها وبين عصر لويس الرابع عشر.

زرت من سنين بعيدة جامعة من الجامعات الأجنبية فأطلعني قيّم دار كتبها على فهارس دوّن فيها طائفة من الألفاظ بحسب تأريخ ظهورها، وأذكر أني قلت له هذا عمل شاق لا يتم إلا في عصور وطلبت إليه أن ينشر هذه الألفاظ حتى تطلع عليها مجامع بلاد العرب.

أفلا يستطيع مجمع فؤاد الأول أن يتولّى هذا العمل ولست في حاجة إلى تنبيه أساتذته على فائدته فإن في لغتنا العربية كثيراً من الغموض، فأكثر الألفاظ لم تحدد معانيها وهذا من عيوب اللغة، فقد نمر مثلاً بألفاظ الهزل والمزح والهزء والسخرية والعبث والتنكيت والظرف والمداعبة والتهكم وأشباهها فلا نجد معنى محدداً لكل لفظ منها، ولا نعرف المواضع التي يجب علينا استعمال هذه الألفاظ فيها على الضبط، فكل منا يستعملها على الوجه الذي يراه فأنا استعمل السخرية بدلاً من التهكم وغيري يستعمل التهكم بدلاً من السخرية وآخر يلجأ إلى الهزء وآخر إلى العبث وهذا كله يؤدي إلى غموض في اللغة لأن معجماتنا لم تحدد المعاني تحديداً فإذا تولّى مجمعنا وضع معجم للألفاظ بحسب تأريخها فقد يذهب هذا الغموض، لأنا نعرف حينئذ أن هذا اللفظ مثلاً نشأ في عصر امرئ القيس فكان له معنى خاص ثم جاء الإسلام فاستمر في معناه ثم جاء عصر بني أمية فحول من معنى خاص إلى معنى عام أو من معنى عام إلى معنى خاص ثم جاء عصر بني العباس فذهب اللفظ

ومات، وعلى هذا الشكل نشهد ميلاد الألفاظ وانتقالها من طور إلى طور ونشأتها وموتها أو بقائها، فتدخل لغتنا في طور جديد، تحدد فيه معاني ألفاظها على نحو ما نجده في بعض اللغات الأجنبية كاللغة الفرنسية.

وليس من الضروري أن يتم هذا العمل في سنة أو عشر سنين أو خمسين سنة وإنما من الضروري أن نشرع فيه وأن ننشر كل سنة فهارس الألفاظ التي نضعها بحيث يستمر مجمعنا في تتبع هذه الألفاظ فقد يظهر المعجم التاريخي بعد مائة سنة أو بعد مائتين ولا بأس بذلك، لأن عملنا للآتي لا للحاضر وحده كما قلت.

فإذا تكرم مجمعنا بالنظر في هذا الإقتراح فقد يهون عليه أن يؤلف لجنة لدراسته ووضع أسسه وأصوله.

وتفضلوا يا صاحب المعالي بقبول وافر احترامي

عميد كلية الآداب

دمشق ٢٤ شباط ١٩٤٩

تفكير فوضى

إذا كان الأدب صورة الحياة فإني أريد أن أتصدى في هذا المقال الوجيز لمشهد من مشاهد الحياة، فقد أحضر مجلساً من مجالسنا الخاصة فأسمع أحاديث المجلس وأخوض في هذه الأحاديث، والذي شهدته أن أهل المجلس في أكثر الأحيان يتكلم منهم ثلاثة أو أربعة في وقت واحد فلا يستطيع المستمع أن يعي ما يقولون لأن كل واحد منهم في واد، ومن العسير أن يدرك الذهن في وقت واحد مرامي ثلاثة أحاديث أو أربعة أحاديث هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن أهل المجلس ينتقلون من حديث إلى حديث دون أن يكون للواحد صلة بالآخر.

ولا يشهد الإنسان هذا النوع من التفكير في المجالس الخاصة وحدها التي قد تخلو من الكلفة وتقرب من الطبع وإنما يشهده في مجالس عامة قد تجمع طائفة من أهل العلم والتفكير، فكثيراً ما تعين هذه المجالس ما نسميه جدول الأعمال فإذا شرع رئيس المجلس في عرض هذه الأعمال وامتد هذا العرض نصف ساعة أو أكثر رأينا بعض أهل المجلس ينتقلون من حديث إلى حديث دون تأليف بينهما.

وما يقال في هذه المجالس العلمية قد يقال في مجالس النواب فكثيراً ما نشهد نوابنا يقفزون في خطبهم أو بياناتهم من الشرق إلى الغرب دون أن يتنفسوا في مثل هذه الإستطرادات طرفة عين فلا يكاد الإنسان يلمس أكثر تنسيق في المذكرات.

ولا غرابة بعد ذلك أن يمر أحدنا بتفكير فوضى في مجالس السيدات فأكثر هذه الاستقبالات التي درجت عليها سيدات دمشق إنما مثلها كما يقولون كمثل الحمَّام المقطوع ماؤه، كلمة من الشرق وكلمة من الغرب وقد تتكلم السيدات كلهن في وقت واحد.

وأغرب من هذا كله أن أحدنا يدخل مكتب محام من المحامين إما لصداقة بينه وبين المحامي وإما لزيارة خاصة فيشهد المحامي يستقبل في وقت واحد ثلاثة أو أربعة رجال وكل واحد منهم يعرض قضيته أمام الآخر وقد يسمع المحامي كلام رجل ثم ينتقل إلى رجل آخر فيسمع بعض قضيته من دون أن يصل إلى منتهاها ثم ينتقل إلى الرجل الثالث على هذا الشكل وهو مضطر إلى مثل هذا العمل لأن الناس لم يتعودوا الإنتظار في غرفة الإنتظار حتى تبلغ النوبة إليهم.

لا شك في أن الأحاديث أو الخطب أو البيانات أو الافتاءات التي قد تدور على هذا الشكل قد تخلو من كثير من التنسيق فهي فوضى في أغلبها.

وإذا انتقلنا من هذه الخاصة في عصرنا إلى أفق أوسع منها وأبعد عنها رأينا مثل هذه الآثار في أدبنا نفسه في بعض الأحيان فإن تآليفنا القديمة قد تظهر عليها روح فوضى، هذا كتاب الأغاني نفسه على جلالة قدره فإنا لا نجد فيه ترتيباً حتى فطن صاحبه إلى ذلك فأشار إلى من يتصفحه وينكر ترك صاحبه تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم أو على ما غُني به من شعر شاعر وقد بين صاحب الكتاب في مقدمته المانع من تصنيف كتابه والباعث على منحاه الذي نحاه ومن جملة العلل التي ذكرها أن أخبار الغناء أو الشعراء إذا كانت منسقة كانت للنفس عنها نبوة وللقلب منها ملة وفي طباع البشر محبة الإنتقال من شيء إلى شيء.

ولم يكن هذا المنطق منطق الأصفهاني وحده وإنما لجأ إليه إمام البلغاء في المتقدمين وأعني به الجاحظ فإن استطراداته مشهورة وإنتقاله من هزل إلى جد معروف.

إن هذا المنطق الذي استفاض في أدبنا في قديم العصور قد نشهد آثاره في عصرنا هذا، عصر العلم، وإذا قلت العلم عنيت بذلك التنسيق والترتيب والتدقيق والتركيز وأمثال هذه الخصائص، فإن الوقت أصبح له قيمة في هذه الأيام ولا يتسع الزمن لتضييع المجالس في مذاكرات أو مطارحات فوضى لا يؤلف بينهما صلة من الصلات، فالزمن يستوجب عرض الفكر في أدق قالب وأقصر

مدة، أما الأمم التي لا تعنى بالتفكير الدقيق أو بالإقتصاد في الوقت فهي ليست من أمم هذا العصر فلا تصلح لروحه وإنما هي من روح العصور القديمة التي لم يكن فيها قيمة للوقت أو منطق التفكير.

وقد يلزمنا في مثل هذه المشاهدات الأليمة أن نبحث عن معالجة لهذا الداء الشائع فينا قد يجد أهل الفلسفة في فلسفتهم دواء لتفكير فوضى، وقد يجد أهل الرياضيات في رياضياتهم مثل هذا الدواء، أما نحن معاشر الأدباء فإن صناعاتنا أجمح فكل واحد منا يتناول القلم ويطرح أفكاره على الورقة دون أن يكون لعنان خياله أو تفكيره مدى يقف عنده على أننا نستطيع أن نروض الأذهان على التنسيق، وأن نكبح من جماح التفكير وقد تكون أساليبنا في هذه المعالجة لا تقل عن أساليب الفلسفة والرياضيات، إن أساتذة الأدب يدرسون أموراً كثيرة، إنهم يدرسون الصرف والنحو والبلاغة وعلوم اللغة وفقهها وتاريخ الأدب ونحو ذلك ولكنهم يدرسون في الوقت نفسه تفسير النص به.

هذا النوع من التدريس قد يروض الأذهان على نوع من التنسيق غريب، حتى يصبح التنسيق عادة فلا يند صاحبه في مجلس خاص أو عام من شرق إلى غرب أو من شمال إلى جنوب وإنما يركز تفكيره تركيزاً قوياً ويسلسله بحسب المنطق، صاحب التفسير يعنى قبل كل شيء في تفسيره الأدبي بالفكرة العامة في النص، ثم

بأجزاء هذه الفكرة ثم بإرتباط كل جزء بجزء بحيث يكون النص وحدة تامة يشهد الذهن تلاحمها أو إنفكاكها، تنسيقها أو إختلالها تماسكها أو تضعضعها، وإذا تعود الذهن مثل هذا الشهود وتروض عليه إستطاع صاحبه أن يكبح من جماح تفكيره على الزمن وأن يربط الفكر بالفكر ربطاً قوياً ولا ريب في أن مثل هذه الرياضة من شأنها أن تؤثر في أحاديث صاحبها الخاصة تأثيرها في كتاباته العامة حتى يخرج على الزمن عن تفكير فوضى لا نزال نذوق مرارة عواقبه.

دمشق في ماضيها القريب!

«الكتاتيب .. الحكواتي .. الكركوزاتي.. الروايات .. الشاعر..»

أولعت بالرجوع إلى الماضي، وبالمقابلة بينه وبين الحاضر، وما أولعت هذا الولع إلاَّ لتتبع آثار الحياة والنظر في انتقالها من طورٍ إلى طورٍ. لقد نعمت هذه الأيَّام بقراءة «قاموس الصناعات الشامية» الذي تضافر على وضعه محمد سعيد القاسمي وابنه جمال الدين وصهره خليل العظم؛ ووصفت الأثر البليغ الذي بقي في نفسي من قراءة هذا الكتاب الفريد في بابهن ونشرت هذا الوصف في جريدة «الأيَّام». وإني أَمحور الآن إلى وصف أَثر آخر، فإن في كل مادَّة من موادّ هذا «قاموس» اشارةً إلى عالم منفرد، إلاَّ أني لا أَقف إلاَّ على الموادّ الآتية: «مؤدّب أَطفال.. الحكواتي.. الكركوزاتي. ممثل الروايات... الشاعر..». فقد أحيت هذه الموادّ في ذهني صورة من صور الثقافة في دمشق في ماضيها القريب.

كانت مراكز الثقافة في السنين الماضية الكتاتيب، ثم كانت عامَّة الشعب تستمع إلى ما كانوا يسمونه يومئذٍ: «الحكواتي» و «الكركوزاتي» ممثل الروايات. وكان الشاعر في تلك السنين له غاية

خاصة في شعره، هذه المواد التي مررت عليها في «قاموس الصناعات الشامية» صوّرت لذهني عالماً خاصاً وهو عالم الثقافة في دمشق في ماضٍ غير بعيد، فإذا استطعت أن أعرب عن هذا العالم في مقالي هذا أدركنا الفرق بين أساليب ثقافتنا في الماضي وثقافتنا في الحاضر، وتبيَّن لنا بعد هذا الإدراك أثر التطور وقوة هذا التطوّر.

كانت الكتاتيب في حارات دمشق أبرز مجتمع من مجتمعات التعليم، والقائم على الكتَّاب يقال له شيخ الكتَّاب، وقد جاء في «قاموس الصناعات الشامية» تعريف لشيخ الكتَّاب: فهو يلقِّن الأطفال حروف الهجاء، مفردها ومركبها وشكلها، ثم يعلمهم قراءة القرآن والكتابة وطرفاً من الحساب. وأفاض صاحب «القاموس» بعد ذلك في الكلام على الأجور في الكتاتيب، وكان اسم هذه الأجور الخميسية لأن أهل الأولاد يدفعونها يوم الخميس.

إني أذكر من تلك الكتاتيب صوراً شتَّى، أمَّا التعليم فلم يبقَ في البال أثر منه، كانوا يعلِّمون القرآن الكريم وحسن الخط وقليلاً من الحساب، واسم الحساب في تلك الأيام: الهندمي.

ولكن كيف كانت الكتاتيب وكيف كان التعليم وكيف كان شيخ الكتَّاب؟

أكثر الكتاتيب كانت في المساجد، كان الكتَّاب في غرفة مظلمة لا يدخلها نور ولا هواء فكان الأولاد محشوكين فيها حشكاً، الهواء

فاسد، فلا رياضة ولا فتح شبابيك، كان الشيخ في بعض الكتاتيب يجلس على طرَّاحة في الأرض وأَمامه منصَّة صغيرة، يصوِّب نظره في الأولاد ويصعّده، وفي يده عصا طويلة اسمها في العامية «مسطيجة» وهي من القصب، فإذا تحرَّك ولد من آخر الكتَّاب أَو ضحك أَو كلَّم رفيقه كان الشيخ يهزّه بهذه «المسطيجة» من محله دون أَن يتلحلح، فمرَّة تقع العصا على طربوشه، ومرَّة على «طاقيته» وحيناً على كتفه وحيناً على صدره، فيقلع الولد عن الحركة إذا كان يتحرك، أَو عن الضحك إذا كان يضحك، أَو عن الكلام إذا كان يتكلم، وطريقة التدريس كانت قائمة على أن يضع كل ولدٍ قرآناً على ركبتيه، فيتربع على الحصير، فيقرأ القرآن وهو يهتز، مرّة يميل ذات اليمين ومرَّة ذات الشمال، وحيناً يهبط برأسه وحيناً يرفع الرأس، وكثيراً ما كان الأولاد يقرؤون ما يقرؤون والشيخ لاهٍ بأكلٍ «لتسقية» في الصباح، لينتظر الخميس لأخذ الخميسية، وأَكثر ما يصل إليه الولد في قراءة القرآن الكريم سورة ياسين، فإذا وصل إلى هذه الصورة الشريف ظهرت دلائل النجابة عليه!

إني لا أَنسى انصراف الأولاد من الكتاتيب في العصر وكل واحدٍ منهم قرآنه في كيس من الكتَّاب معلَّق على كتفه.

أَذكر من كتاتيب تلك السنين كتَّاب الشيخ محمد علي الحكيم

في سوق مدحت باشا، والشيخ كان مشهوراً بحسن الخط، فهو عصبي المزاج، قصير القامة، سريع الخطو، وكتَّاب الشيخ حسين البغجاتي في مدرسة نور الدين الشهيد، وكتَّاب الشيخ سليم النحلاوي في زاوية السعدي في أول حارة النصارى. أمَّا الكتَّاب المشهور فهو كتَّاب الشيخ عيد السفرجلاني، والأولاد فيه من أَهل البيوتات في دمشق، ومن أنَباء التجَّار وذوي الحالة الحسنة. ومن الشيوخ الذين درَّسوا فيه الشيخ كامل القصَّاب وكان مشهوراً في حينه، وقد اتهم بأنهر وهابي؛ وكان هذا اللقب في دمشق في تلك السنين يدلّ على شيء من الانحراف في نظر الجامدين من الشيوخ.

هكذا كانت مراكز الثقافة في دمشق لمَّا لا فتحت عيني على الدنيا.

وعلى ذكر الكتاتيب لا ينبغي لي أن أُهمل ذكر «الخجا»؛ والمراد بهذه المادَّة المعلمة التي كانت تعلّم البنات في الكتَّاب، فكان للبنات كتاتيب يقصدها الأولاد الصغار فيجتمع الأولاد والبنات معاً، وقد بقيت في ذهني أَسماء «الخجا» عيُّوش «والخجا» خدُّوج. أَذكر أن كتاتيب البنات كانت في البيوت، ومن آثار تلك الكتاتيب في خاطري كتَّاب في محلتنا القديمة في الشاغور، على مقربة من حمَّام الركابي. وإذا كان لابأس بتدوين ذكرى من ذكر تلك السنين فإني أَذكر أنه بينما كان الأولاد والبنات جالسين في

ذلك الكتَّاب في «الليوان» صرخت «الحجا» وقالت: يا أَولاد ! غمضوا عيونكم، فغمضنا، ثم صرخت: يا أَولاد ! فتحوا، ففتحنا. ماذا جرى من خلال هذا التغميض والتفتيح؟ إن «الحجا» قد غطست في البحرة، ثم نشفت ماء بدنها.

وكأنَّ العصر الذي عشت فيه في صغري كان صورة العصر الذي وصفه صاحب كتاب الأغاني فإذا رجعنا إلى الأغاني وجدنا وصف الكتاتيب: أَين تعلم الناس وكيف كان المعلمون يعاملون الأولاد ويكافئون النابغين منهم وكيف كانت حياة الأولاد في الكتاتيب، فمن طرائف الأمور أن نعرف أن إبراهيم الموصلي كان في الكتَّاب في صغره فكان لا يتعلّم شيئاً ولا يزال يُضرب ويُحبس ولا ينجح ذلك فيه حتى هرب إلى الموصل وهناك تعلَّم الغناء، كما أنه من طرائف الأخبار أن نعرف أن الجواري كنَّ يختلفن إلى الكتَّاب. وقد كانوا يسمّون المدرسة مرَّة كتّاباً ومرَّة مكتباً والاسمان استعملا في عصرنا هذا.

هكذا كانت الكتاتيب لَمَّا فتحت عيني على الدنيا في دمشق، أمَّا عامَّة الشعب فكانوا يسرعون في المساء إلى ما كانوا يسمّونه «الحكواتي». وقد جاء في تعريف هذه المادَّة في «قاموس الصناعات الشامية» أنه اسم لمن يحفظ الحكايات ويلقيها عن ظهر قلبه أَو من الكتاب، وأَكثر «الحكواتية» كانوا يحفظون قصص عنترة والملك

الظاهر والملك سيف أَو حكايات من نمط آخر مضحك. لقد فصّل صاحب «القاموس» الكلام على محل «الحكواتي» وعلى وقت الحكاية وأغلبه بعد المغرب وبعد العشاء.

لقد سمعت بعض «الحكواتية» في صغري فقد كانوا يمثلون تمثيلاً في خلال قراءة الحكاية. كان الواحد منهم يمسك الكتاب بيدْ ويجول في «القهوة» من أَولها إلى آخرها والجمهور على يمينه وعلى شماله وهو في وسطهم يجيء ويذهب. وكان صوته يختلف على اختلاف معاني الكلام، فإذا احتاج الكلام إلى الشدة كان «الحكواتي» شديداً في صوته، وإذا احتاج إلى الرقة كان رقيقاً، وإذا وصل إلى موطن من مواطن البطش كان جبّاراً. وهكذا كان يؤثر في جمهور الناس بنبرات صوته وباختلاف هذه النبرات. يحكي «الحكواتي» والمستمعون من الناس لاهون بأراكيلهم، يملؤون خواطرهم من صور حكاياته، لا صلة لهم بالدنيا ومشكلاتها، همّهم في تلك الساعة أن يعرفوا ما جرى لعنترة أَو للملك الظاهر وغيره من الملوك، حياة وادعة، هادئة، بسيطة تبدأ في التبكير إلى حرفهم التي ذكرها صاحب «القاموس» وتصفّى مشكلاتها في المساء بالإصغاء إلى «الحكواتي» وبما يشحن به أَذهانهم من صور البطولة والشجاعة والحب وما شابه ذلك.

وأَغلب «الحكواتية» كانوا في آخر الوقت يقفون عند مقطع من

مقاطع الحكاية يحب المستمع فيه أن يعرف ما جرى لعنترة أو لغيره من أَبطال الحكايات، فكان «الحكواتي» في وقفته هذه يربط المستمع ويقيّده حتى يبكر في الليلة الآتية إلى «القهوة». وفي «قاموس الصناعات الشامية» قصة طريفة من هذا القبيل لرجل من أَهل حمص.

وإذا رجعنا إلى تاريخنا البعيد وجدنا أن القصص كان مستفيضاً في تلك الأحقاب، فكان الناس يقبلون على القاص ويدفعون إليه شيئاً من المال كما يقبل الناس في أيَّامنا على المشارح.

وكما كانت العامّة في دمشق تذهب إلى «الحكواتية» في المساء فتبُقي حكاياتهم في أذهانهم صوراً وآثاراً شتَّى كذلك كانوا يقبلون على «الكركوزاتي» لقد وصف صاحب «القاموس» «الكركوزاتي» فعرَّفه وذكر محل شغله وأَدوات عمله وتكلم على اختلاف لهجاته، كل لهجة تناسب الصورة التي يعرضها، فلهجة «مدلَّل» تختلف مثلا عن لهجة «عيواظ». وأَكثر الحارات القديمة في دمشق كان فيها «كركوزاتي». والإقبال عليه كان يشتدّ في رمضان. وكما كان يذهب الأولاد الصغار إلى «الكركوزاتي» كذلك كان يذهب إليه الشباب والشيوخ من أَهل الحارة. وقد كان في بعض الأحيان حسن الصوت فيقرن حسن تمثيله بحسن صوته. وآخر من شهدته في دمشق من «الكركوزاتية» خلد

الكركوزاتي المشهور، وقد عجز في آخر عمره عن العمل وذلك من أربعين سنة (فكان يطوف على بعض المقاهي فيتصدَّق عليه من يعرفه من الناس). وقد كانت مقاطيع وجهه تدلّ على شيء من النبوغ.

لم تقتصر مهمة «الكركوزاتي» على تسلية الناس فقد كان ناقداً في أمور الاجتماع والأخلاق والسياسة. كان «الكركوزاتي» ناقداً من نقَّاد الحياة العامَّة، كان في أكثر الأحيان يلجأ إلى حادث حدث في الحارة أو في المدينة أو في الحكومة فيستخرج من هذا الحادث موضوعاً ويهيء شبه رواية يركِّز أبطالها ويجعل لكل بطلٍ منها دوراً ويُنطقه باللسان المناسب لهذا الدور، فالرواية لم تكن مجرَّد عرض صور أَو حسن غناءٍ، وإنما كانت نقداً اجتماعياً، فهو شكل من أَشكال ثقافة العامّة.

أَذكر أني كنت في «لندن» سنة ١٩٣٤ وقد حضرت في ملهى من ملاهيها المشهورة تمثيل صور مختلفة يغلب عليها الهزل، من جملة الصور خيمة «الكركوزاتي» لكنها تنار بالكهرباء بدلاً من السراج والفتيلة فكانت الخيالات تعرض كما تعرض في بلادنا خيالات «مدلَّل» و «عيواظ» وغيرهما، وهذا ما يدلّ على أن هذا الطراز من النقد الاجتماعي له أَبلغ الآثار في العامَّة والخاصَّة، وربما عمل فيهم مالا يعمله غيره.

وآخر شكل من أَشكال الثقافة العامَّة في دمشق في ماضيها إنما هو التمثيل، إلاَّ ممثل الروايات أَرفع درجة من «الحكواتي» و «الكركوزاتي».

تكلم عن ممثل الروايات صاحب «قاموس الصناعات الشامية»، وكان الاسم الغالب عليها في تلك الأَيَّام: «التياترو» و«الكوميديا» لقد وصف هذه الحرفة وذكر لوازمها ولوازم المسرح وذكر أنها من خمس وثمانين سنة راجت في دمشق مدة ست سنين رواجاً عجيباً، واهتمَّ بها أَصحابها، وغصَّت المسارح بالمتفرجين، ثم صدرت الأَوامر بتعطيلها لأنّ من الصنَّاع والعمَّال من كان يترك أَهله بلا أَكل ويصرف ما يكسبه من المال على الفرجة، وهذا دليل على منزلة التمثيل في العامّة فضلاً عن الخاصّة، ثم سُمح بالتمثيل فكان يفد على دمشق ممثلون من مصر يمثلون روايات عربية.

لقد كثر التمثيل في دمشق بعد انسحاب الترك من هذه البلاد من ثلاث وأَربعين سنة، أَذكر أنه مثلت على مسرح الزهرة في دمشق رواية جمال باشا. وقام بدور جمال باشا المرحوم عبد الوهاب أَبو السعود فما كانت هيأته تختلف عن هيأة جمال باشا في شيء لا من حيث القامة ولا من حيث اللحية والوجه. ثم جاءت فرقة «كشكش بك» ومثَّلت على مسرح الزهرة وحضر الرواية الأَمير فيصل وجماعته وفي جملتهم الخوري حبيب اسطفان، وكان

خطيباً اشتهر بتشجيع العامَّة في خطبه.

هذه أربعة مظاهر من مظاهر الثقافة في ماضي دمشق القريب، وليس معنى هذا أن الثقافة الرفيعة لم يكن لها أَثر فقد اشتهر شيوخ في علوم الدين واللغة، بعضهم كان يدرِّس في المساجد في أَوقات معروفة وبعضهم في البيوت. وكان لهم تلاميذ لا ينقطعون عن سماع تدريسهم، وكنت في بعض الأحيان أَحضر درس الشيخ بدر الدين الحسني في مسجد بني أُمية. وأَذكر أَن أَحد تلاميذه في الحلقة كان يقرأ حديثاً من الأحاديث فإذا فرغ من القراءة انبرى الشيخ للشرح والتفسير بلهجته (المغربية). وقد حضرت مرَّة في مسجد بني أمية شيخاً من الجزائر لا يحضرني اسمه ولم تطل إقامته بدمشق فكان يخوض في أمور مختلفة، حتى في الطب، وقد بقي في ذهني من تدريسه من خمسين سنة أَولا أَكثر هذا الكلام: خذ من الحمَّام العرق ومن الفجل الورق ومن اللحم المرق.

أمّا الشاعر فلست أَعرف تعريفاً به أَغرب جاء في «القاموس»: إذا الشاعر هو من يحترف بواسطة أَدبه وشعره فينظم شعراً يمدح به الأمراء والأغنياء فينعمون عليه بما تسمح به أَنفسهم.

هكذا كان الشعراء المساكين في دمشق من خمسين أَو ستين سنة، مهمتهم المدح لينعم المنعمون عليهم. وقد يقول قائل: وماذا كانت مهمة الشاعر في القديم، أَفما كان يمدح الأمراء والملوك والخلفاء

ليعيش بعطاياهم؟ هذا صحيح، ولكن بعض الشعراء كانت أَماديحهم في تلك السنين درساً في البطولة، فكانت قصائدهم تشمل على روح البطولة فضلاً عن اشتمالها في بعض الأَحيان على صور رائعة من الفن مثل وصف إيوان كسرى في شعر البحتري، أَو وصف الأَسد في شعر المتنبي، أو شيء آخر من هذا النوع.

أَدركت وأَنا صغير شاعرين من شعراء دمشق وهما: عبد الرحمن القصَّار وأَبو السعود مراد، وأَذكر أني لما كبرت ضمَّني في الجرجانية أَنا و «أَبو السعود مراد» مجلس فقال لي: ما رأيك في شعر هذا العصر، ولم أَعرف الغاية من سؤاله، ثم قال لي: إن شعر هذا العصر خالٍ من الكناية والتورية والاستعارة وما شابه ذلك فكان الذوق في تلك الأَيّام متعلقاً بهذا الشكل من الشعر.

هذه صورة من صور الثقافة في دمشق قبل خمسين أَو ستين أَو سبعين سنة، لا أقول أنها كاملة ولكني أَرى فيها بعض الصحَّة. وإذا قابلنا بينها وبين الثقافة في يومنا هذا اهتدينا إلى أثر تعاقب السنين وإلى تنقل الثقافة في هذه السنين من طور إلى طور: فالكتاتيب ذهب رسمها ولم يبق لها أَثر وقامت مقامها مدارس الحكومة على اختلاف درجاتها؛ و «الحكواتية» في دمشق لا يرتفع لهم صوت فقد حلَّت القصص الفنية محلاًّ تلك الحكايات العامية وأَخذ أَصحابها يعالجون في قصصهم مشكلات الحياة على تباين

ألوانها؛ وأمَّا «الكركوزاتية» فحرفتها قد بطلت بالمرة، ومن النشئ من لا يعرف معنى هذا الاسم، فلنقد الفني حلَّ محل النقد العامي، وصور السينما حلَّت محل صور «كركوز»؛ وأمَّا التمثيل فإن الهمم منصرفة إليه، ولعلَّ أهمَّ ما يحتاج إليه هذا الفن إنما هو المكان قبل كل شيء.

أما الشاعر، فلا يمدح في عصرنا الأمير للقبه أو الغني لغناه، فالشاعر الذي يهبط بشعره إلى المدح ليعيش يهبط هو وشعره معاً.

إن للشعراء في دهرنا هذا مهمة غير مهمة المدح، فهم الذين يغنون ببطولة الرجال والأُمم، ويعطفون في شعرهم على آلام البشرية، ويحلمون بالحب والشباب، ويغنون بحنو الأسرة وبقوة عاطفة العمل الاجتماعي وقوة الأمل.

١٩٦١/٧/٦

شفيق جبري

بقلم

نخبة من الأدباء

حديث الشعراء

إلى شاعر الشام

الأستاذ شفيق بك جبري

للشاعر الكبير الأستاذ بدر الدين حامد

ما علـى الصـب أن يجـد غرامـه — بين خـود الظبـأ وكـأس المدامـه

أرمضتـه مـن الزمـان الرزايـا — وشـجته مـن الأنـام الملامـه

كلمـا لـج فـي الهـوى عذلـوه — فتولـى بغصـة وندامـه

وهـو صـب مضلـل فـي هـواه — فامنحيـه يـامي منـك ابتسـامه

هجـر الأهـل والصحـاب ولمـا — يقـض مـن هـذه الحيـاة مرامـه

فـي ثنايـا الظـلام يجلـس فـرداً — خاشـع الطـرف والكتـاب امامـه

يقـرأ الوجـد والصبابـة فيـه — فيـداوي حنينـه وهيامـه

نعمـة اللـه فـي الغـرام ولكـن — كيـف يطفـي الشـقي منهـا أوامـه

أيهـا القلـب عـش خليـاً اذا مـا — كنتـا صخراً أو مت قتيل القسامة(١)

ذاك أجـدى عليـك بعـد زمـان — ذقـت منـه نقيعـه وزؤآمـه

★ ★ ★

---

(١) القاسمة : الجمال.

يـا رعـى اللـه عهدنـا يـوم كنـا نتولـى الهـوى ونرعـى ذمامـه
ذاك عهـد مـن الصبـآء[1] وكنـا نتمنـى علـى الزمـان دوامـه
قـد لقينـا بـه ربيـع الأمـاني وشـممنا عـراره وخزامـه[2]
يزدهـي الـروض اذ نمـر فنلقـى بالتحيـات ورده وحمامـه
وبنـات السـمآء والمـآء والآ فـاق طـراً تدعـو لنـا بالسـلامة
لـم يرعنـا الا النـوى حيـن قـالوا قـوض العهـد لـلرحيل خيامـه
انـت يـا شـاعر الشـآم عليـم كـم بكينـا غـب النـوى أيامـه

★ ★ ★

انظـر الغصـن كيـف يذبـل نضـراً ثـم يلقـي بعـد الذبـول حمامـه
هكـذا كـانت الأمـاني جسـاماً ثـم بـادت مـن بعـد تلـك الجسـامه
حسـب قلبـي مـن الحنيـن إليهـا فيض دمـع يذري الحنين سجامه
مـا لقلبـي اذا أردت انطلاقـاً يسـلم الوجـد للاسـار زمامـه
والتأسـي أتـت عليـه الليـالي ليتنـي سـرت لـلردى قدامـه
لسـت وحـدي بمـا أعـاني ولكـن كـل مـن جئـت يشـتكي اسـقامه
حسـن " يـا شـفيق " ان تنعش النـا س فينسـى اخـو الأسـى آلامـه

★ ★ ★

---

(١) الصبا بالمد : الصبا.

(٢) الخزام : الخزامي.

للقريض البديع أنت إمام   خلد الله للقريض إمامه
ما نسيم الصباح حمله النور   د نضيراً أريجه وسلامه
ينفخ الحي فالوجوه جميعاً   تتلقاه بالرضى والكرامه
بجميل كما إذا قلت شعراً   تلمس الروح حسنه ونظامه
قد عرفنا شاعراً في معانيـ   ك وفي اللفظ قد عشقنا إنسجامه
نغمات من القلوب صداها   كلنا واجد بها أنغامه
ترسل الروح في الجمال فتأتي   بعد حين وفي يديها علامه
فإذا ما نظمت شعراً رأينا   فيه معنى الجمال وجهاً وقامه
تنزل الوحي من أعاليه طوعا   لا تخاف إحتباسه وإنصرامه

★ ★ ★

أيها الشاعر الذي زين القطـ   ر جميعاً لبناته وشامه
داونا بالنظيم فهو عزاء   للقلوب الشجية المستهامه
قد سئمنا ترديدنا كل يوم   شعر قوم لا يعدلون قلامه
والزمان الذي تولى غشوم   سامنا الذل جهرة والظلامه
فاعنا على الزمان بشعر   ساجل البحر فيضه والغمامه
شعرك العذب يابن جبري خضم   قد وردنا عبابه وجمامه[1]
ما عليه وهو الخضم اذا ما   نال من كل شاعر إعظامه

★ ★ ★

---

(١) الجمام : جمع جم وهو الكثير من كل شيء.

سرني الدهر مدة بالتداني   في ديار حمدت فيها الإقامه
ثم كان البعاد فالقلب يشدو   "ما على الصب أن يجد غرامه"

المقتبس ١٩٢٨
حماه - بدر الدين حامد

في بلودان ودمشق
مع شفيق جبري

لم يهجر عزلته بعد، أديب سورية الكبير وشاعرها!

كان الصيف، وكان الليل في بلودان نوراً فوق نور، يخلق في واعيات الناس، زهو المرح وجنون الحياة، ويرسل في طريق الأدباء والشعراء، قبسات الفن وخفقات الإلهام، وكان شفيق جبري: الأديب الكبير والشاعر الكبير، في هؤلاء الأدباء والشعراء والناس في بلودان، في المصيف المرح الملهم المجنون، يلقي على الوادي العبقري نظرات العبقريين، وتخطف عيناه الهادئتان الشاعرتان، كل الألوان العجيبة في الوادي، ويحس في صدره المضطرب، وساوس وهواجس، تعصف في همس، وتنفرج الشفتان الهادئتان الشاعرتان: لقد انطلقت العاصفة الهامسة، من صدره إلى فمه، ويبدو لرفيق له في نزهته قريب منه، أن هناك شيئاً، لعله الشعر، لعله حنين إلى الشعر، لعله ذكرى.. ثم يطوي صدره صفحة الوادي، ويجر إلى الفندق الضاجّ، قدمين قاسيتين ثقيلتين، ويجلس في الفندق وفي الضجة، بعيداً عن العبث والناس. ويعود إلى البيت، في شق الجبل، ويصغي إلى أصوات تعبه، تخترق الجدر، وتنفذ إلى غرفته، وإلى

وحدته وسريره، وتقول:

لم يهجر العزلة بعد، أديب سورية الكبير، وشاعرها

وفي دمشق، في هذا الشتاء، وفي غرفة في بيته، أعرفها وتعرفني، وأذكرها وتذكرني، أخذت مكاني الأنيق، أصيل يوم قريب، في أسبوع قريب، وأرخيت إلى حديثه النبيغ، كل العناية في السمع، وكل الحرص على الاستيعاب. وحديث الأديب الكبير و الشاعر الكبير، دروس في الأدب والنقد، طيبة عميقة، ودليل مبين صادق يعرف المصغي فيه، أن صاحب المتنبي والجاحظ وكلية الآداب، هو هذا العاشق المتعلق بالقراءة والمطالعة.. ألم يكن «كتاب فن الحياة لأندره موروا» إلى جانبه، و «كتاب العالم لشارل ريشه» متّسداً إلى فضل عباءته، ألم تكن أجزاء من «الأغاني» بين يديه؟....

إنه لا يريد أن يدوي اسمه الآن، في الأسماء التي تدوي، ولا يريد العودة إلى الشعر والناس إلا بعد زمن، ولا يريد أن يهجر العزلة، ولكنه غير بعيد عن الحركة الأدبية في دمشق، غير بعيد عن وثبات الشباب: يقرأ ما ينتجون، ويرى أن تتزن هذه الوثبات، وأن نخلد إلى الترجمة في الأدب عن الغرب، لأن الأثر الموضوع تغلب عليه الطفرة، وفي الطفرة عثار، وليسرف الشباب في الترجمة، لأنها تبعث فيهم القوة، وتعدد في نتاجهم صور الفكر والفهم.

وجاء حديث الشعر، وعاد بنا إلى الماضي، إلى الشعراء العرب المنطوين، عندما كانت مدارس الشعر متلاحقة الحلقات، لا يفصل

بين الحلقة فيها والحلقة، إلا ما يميّز عصراً عن عصر. وإنه لواثق جازم بأن الفرق سحيق بين أحمد شوقي وإسماعيل صبري ومحمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم، وبين المعاصرين الأحياء. وانتقل إلى الاختصاص في الأدب، وقال إن الأديب العربي، في القديم، ملم من كل علم بطرف، إلا الجاحظ: الغني بموضوعاته، الغني بتعبيراته، وهذه حال قد تغيرت، لأن الأديب في مضامير الفكر والأدب الجديدة، ينصرف إلى ناحية من مشكلة، فيعرضها على الناس مشبعة موسعة كاملة... أما القصة، فإن الحديث عنها في سورية أكثر منها، وما القصة إلا موضوع حيوي، يعني كل العناية بمشكلات المجتمع. وقد قال إنه مع إندره موروا في قوله:

«إن حرارة العواطف عند الشعراء تخمد بين الـ٤٥ والـ ٥٠ من أعمارهم»... أما تاريخنا القومي: هذا التاريخ العظيم الخالد، فإن الواجب في رأيه أن تبعثه في عالم النشر أقلام القصاصين النابهين، والأدباء الأقوياء والأكفاء.

... وعندما انحدر الظلام الظالم، يشق إلى الغرفة والدنيا الطريق، ودعناه، فعادت يداه وعيناه إلى «الأغاني» ورددنا ونحن نهبط السلّم مع المرددين:

لم يهجر عزلته بعد، أديب سورية الكبير، وشاعرها

شاعرية شفيق جبري

أما مللت يا صاحبي من السياسة وتحريت عن وجهة تميل إليها

أو «محطة» تنزل فيها رحلك المثقل نصباً، فتستريح في مسافات هذا الوجود ولو قليلاً تحت ظل وارف من الاستراحة، تسمع مساجلات الطير في عليائها ونوح العنادل بين أفيائها، وتدع لنفسك حبلها على غاربها... فتنطلق وتنطلق بين ثنايا المجهول ومهاويه وتعود إليك صاغرة تلقنك المشاعر في جلال الجمال وجمال الخيال، فتكون إذ ذاك شاعر ذاتك وإن لم تجعل الكلم المقفى والموزون ديوانك، وتتخذ انسجام فكرتك السابحة وذكرياتك السانحة أوزاناً لك وإن لم تتلقن التفاعيل والعروض في بيوت الشعر.

وما هي الحياة؟ نواصلها جهاداً ونلحف أنفسنا بها كداً فلا يثنينا فشل رغباتنا عن المواصلة وراءها، ولا ترحم رغائبنا أنفسنا فتتوارى عنا، ويحف الكونَ قناعةٌ هادئة فيكون كتاب السلام للإنسانية الهوجاء الرقطاء والطامع منا لا يكاد يقطع ليله ونهاره بالسعي لاقتناص شوارد آماله على أنه ـ إن فشل أو فاز ـــ فإنما يركض وراء رغبة لا بد عنها تنتظره في ذرة من التراب وقد بدأ منها ليعود إليها ويا ويله ما أفرغ حياته؟ إن لم يكن ملأ نفسه بالألحان وآمن بالجمال المطلق في العالم الجميل.

أيريدون أن نقضي أيامنا في الجلبة والضوضاء في السياسة والاجتماع. ولا يشعرون أن في النفوس فراغاً لا يملؤه إلا صدى الأنغام وشجو الألحان والموسيقى، إنها لوهلة وجيزة نقف فيها لنشبع أنفسنا من غذائها النفسيّ، فقد يزيدنا جهاداً ونزداد في العزم

مضاء، وهل الشعر سوى الألحان التي ترددها عنادل الأغصان وينطق بها كل موجود؟ ولعل الكواكب وهي في أفلاكها تسير تابعة صدى نظامها الدائمي ولحنها الخالد في الفضاء، والسواقي عند مصابها تنحدر برفق ليتسنى لها أن تسمع صدى تحدرها وشعرها في الوادي العميق.

العندليب الذي نقف اليوم على ألحانه وأنغامه الخرساء المنبعثة عن نفس مكتئبة وشعور هادئ هو عندليب هائم.. يعلمك في ألحانه نُواح العندليب ومعنى اليقظة، ويوحي إليك روح الحرية، ويتنزّل إلى نفسك بما يبثك من شكاة ونجوى، وربما اكتفى أن يردد عليك مقطعاً واحداً في ربيع واحد، وقد يمر ألف ربيع وربيع وأنت لا تزال مستحضراً مقطعه، لأن غناءه هو غناء الخلود وشعره شعر النفس والروح... ذا هو عندليبنا الجميل وأما إذا أردت منا ترديد ألحان ويوماً لا زال يقضي ليله ونهاره نادباً نائحاً فقد تجد في بعض الدواوين بغيتك، ومن بعض النظامين نشدتك، الذين يتشدقون ولا يفتأون يتشدقون لنقول عنهم إنهم شعراء، فكأنهم لا ينتهون عن الترديد حتى تجود عليهم بهذه الكلمة، وما كان أحراهم عندي أن يلقبوا بضفادع المستنقعات. ولعل ذلك لهم كفاء.

جبري، وهل كان جبري سوى هذا العندليب الصداح بينه وبين نفسه، والمقل من ألحانه، لم يتخذ له ترديد الألحان صناعة، ولم ينبر

إلى مدح فلان أو رثاء أو هجاء شأن نظّامينا، في أكثر أطوار حياتهم، بل هو شاعر تقرأ في صمته ـ من شعره ـ مالا تسمعه عند غنائه وترديد شدوه. نظم الشعر فتى شأن الشباب الذي ينفخ على النفوس بحماسة والتهاب ورِقّة وعاطفة، فتهب النفوس مذعورة مأخوذة بالوحي الجديد يتنزل عليها فتصبه (بالرغم عنها) في ألحان يمثلها الشاعر بأبياته وقصائده، ونشأ تحت سماء طالما ولد رواؤها شعراء، وقد أصاب كل الإصابة بتلقينه اللغة الإفرنسية التي كان لآدابها الفضل العظيم بتثقيف عقليته وتطور شاعريته، فدرس منها كبار أدبائها وكتابها بل مزج نفسه بمحيط جديد لامس منه نفسه الحساسة، فجاء شعره نسمة زافرة من أصقاع باردة يلطّفها هبوب الشرق وروحه المعتدلة، وبين هذين تفيض شاعرية جبري ــ شعر الخلود والحقيقة والخيال، وكيف لا يكون للخيال فيه نصيب وقد اتخذ فضاء الشرق والغرب له صحيفة تتمثل فيه أمانيه وآماله وعواطفه ونفسه، على أن انصباغ روحه بالروح الغربية زاده تمجيداً لبلاده وحباً بها حبّاً، وقف عليه شعره الذي أقسم عليه لا ينطلق بوزن ويتغنى بقافية إلا في سبيل وطنه، فلا غزل عنده ولا تشبيب ولا تقرأ في شعره إلا نوح العنادل الباكية على أوطانها، وروح اليقظة المتهادية في الطبيعة، إلا في بلاده وخيال الحرية النازح عنها، وفي كلّ هذه المواقف الساحرة ترى جبري شاعر الصمت والسكينة، كأنه يجد الصمت فيها أبلغ من الكلام فتأبى نفسه إلا انطلاقاً فتنطلق؛ أو يَهبُّ من سباته على حداء اليقظة فلا

يـرى متيقظـاً إلاه، ومـا أشـد خيبتـه عندمـا يـرى أن قومـه في سـبات عميـق! وهـل عليه إلا أن يهيـب بهـم «أفيقـوا؟» فـلا يفيقـون، وتيقظـوا فـلا يسـمعون، ومـا هـو الأولى بمثـل هـؤلاء الأبنـاء غـير الأكفـان الساجية والعيـون الذارفـة.

دعوهـا تُكفَّـن أبناءهـا فقـد زلـزل الدهـرُ علياءهـا

وجـودوا عليهـا بمـاء الجفـون وهـل يُنعِشُ الدهـرُ حوباءهـا

فقـد توالـت عليهـا صـروف الـردى وطواهـا الزمـان فمـا تسـتبين إلا خيالهـا المتمـاثل بـين أخيلـة العصـور البـائدة وأبناؤهـا بهـا.

ومـن قـانط مـن نعيـم الحيـاة يعـاف الحيـاة وغضراءهـا

ومـن سـاهد فـي جنـان الظـلام ينـاجي الغيـوم وأضواءهـا

ولكـن هـذه اليقظـة تعـود إلى سـبات.. ومـا أبـدع خيـال الشـاعر بإلقائه ظـلال الأبـاطح على اليقظـة النائمـة:

بكتهـا الليـالي فمـدت علـى ظـلال الأبـاطح ظلماءهـا

ويـرى الشـاعر في أحنـاء هـذه الظلمـة الدامسـة واليقظـة الهائمـة عندليبـاً ينـوح فيهيـجّ أشـجانه ويثـير ألحانـه فيستفسـر نفسـه عـن شـكواه، ويخيـل إليـه أن كـل مـا في الطبيعـة حزيـن يتوهـج ومتـألم يتشـكى .. فيعجبـه منـه أن يماثلـه بروحـه في الشـاعرية، وشـاعرية العندليـب هـي لحـن بـلا تكليـف، وشـدو بـلا أوزان، وشـعر بغـير ديـوان.

فهـل شـط عـن وكـره جـاره فـأصبح ينـدب جيرانـه

أم البـــــاز أودى بخلاّنـــــــه فـــــودّع بـــــالنَوح خلاّنـــــه

لا، ما تلك بشكوى العندليب النائح ما هي إذن؟

هـــي الريـــح هبـــت بأفنانـــه فزلزلـــــت الريـــح أفنانـــــه

شكا العندليب من فظاعة الريح الهابة على أفنانه فأقوتها، فبكى مأواه الذي يأنس إليه لا تطاولها يده، وقد يأخذ العندليب الصمت وسيلة لبثّ شجوه وآلامه فيوحي إلى شاعرنا معنى الصمت والإمعان.

فيـالك مـــن ممعـن فـــي الحنيـن ألــــم يشــــهد النـــاس إمعانــــه

وهذا البيت أتى أصدق معلن من الشاعر عن نفسيته وإن في روحه إمعانا وألحاناً ترددها جوقة نفسه لا يسمعها الناس بما اعتادوا أن يسمعوا به؛ ولا يبصروها بأدوات إبصارهم؛ فهو إمعان في الحنين والأنين والشكوى والنجوى يتمشى في روح جبري الصامتة صمتاً أثر فيه في حالاته الروحية والشخصية. هو صامت إن رأيته؛ وممعن حيث واجهته.

أتبكـــــى العنــــادل أوطانهــــــا ولا ينـــــدب المـــــرء أوطانـــــه

فينسى الشاعر اليقظة؛ وينسى روح العندليب؛ ويتركه على غصنه يردد أحزانه ويكتم عنه أشجانه. فتأخذ فيه روعة حديدة لا تزال تهزه في كل حين وزمان؛ يُصَبّر عنها نفسه فلا تصبر؛ ويخفي هيامه فيها فلا يخفى، ويستحيل جبري عندها إلى شاعر غزلي رقيق بالرغم عنه (وإن لم يكن يتعاطى الغزل) ويعشق رغبته وتمس نفسه

نفسها، وإن لم يمس صدره صدرها.

صبّرت عنها مهجتي ساعة فلم تطق من بعدها صبرها
عشقتها والله أدرى بنا ما مس صدري في الهوى صدرها

ما ألطف عشق الشاعر لمحبوبته الحرية؛ إنه محيار في يَهْماءَ مجهولة، يائس من حالة قومه أعشى في ظلمة لا سارية فيها؛ ولكن بدر «الحرية»يضيئه فتطيح عنه ضلاته وروحها تمس روحه؛ فيزيد جهاده وعناده، ويهيب بالدهر والمادة والقيود والسلاسل حتى تتفكك وإنه لصوت عميق له مداه في نفسية الشاعر

حصرتَ يا دهرُ نفوسَ الورى وهل أطاقت مهجة حصرها
إن تحرجوا الآساد في غابها هيهات ما تكفيكم شرها

جريدة الشعب
١٩١٨